جمال الدين القاسمي وقضايا اجتماعية في تفسيره تعدد الزوجات والميراث نموذجا

عبد الكبير حسين صالح*

ملخص البحث

اجتمع المنهج السلفي المحافظ والمنهج العقلاني المنفتح في مؤلفات المفسر السوري الشيخ جمال الدين القاسمي (1283هـ/1866م-1332هـ/1914م) التي حاول القاسمي من خلالها الجمع بين الأصالة والمعاصرة. يتناول هذا البحث تفسير القاسمي "محاسن التأويل" بالدراسة، مركزا على منهجه في تناول قضايا اجتماعية من خلال تفسيره لآيات تتعلق بقضايا المرأة من حيث تعدد الزوجات والميراث. وقبل هذا يعرض البحث رأي القاسمي في الاجتهاد وفي العلوم العصرية ثم أصول مذهبه في التفسير.

الكلمات المفتاحية: التفسير الاجتماعي، القاسمي، تعدد الزوجات، الميراث، السلفية العقلانية

Abstract

Works of the Syrian exegete of the Quran, Sheikh Jamal al-Din Al Qasimi (1283 AH / 1866 -1332 AH / 1914 AD), blended the conservative Salafi and the open rational approaches of interpretation in attempt to combine tradition with modernity. This paper deals with the study of the exegesis of Al Qasimi "*Mahasin al-Tawil", focusing* on his approach in addressing social issues through his interpretation of the verses of the Quran relating to women's issues in terms of polygamy and inheritance. The research in the outset presents the opinions of Al Qasimi regarding *ijtihad*, modern sciences and principles of his interpretation.

Key words: Social Interpretation, Al Qassimi, Polygamy, Inheritance, Salafi Rationalism

Abstrak

Karya-karya pentakwil al-Quran Syria, Sheikh Jamal al-Din Al Qasimi (1283 Hijrah/ 1866-1332 Hijrah/ 1914 Masihi), mencampurkan Salafi yang konservatif dan tafsiran mengikuti pendekatan rasional yang

* أستاذ مشارك في قسم الدراسات العامة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

terbuka dalam percubaan untuk menggabungkan tradisi dengan kemodenan. Karya ini menangani kajian tafsiran Al Qasimi "*Mahasin al-Tawil",* memberi tumpuan kepada pendekatan beliau dalam menangani isu-isu sosial melalui tafsiran ayat-ayat al-Quran yang berkaitan dengan isu-isu wanita dari segi poligami dan pewarisan. Penyelidikan dalam permulaannya membentangkan pendapat Al Qasimi mengenai ijtihad, sains moden dan prinsip-prinsip tafsirannya.

Kata Kunci: Interpretasi Sosial, Al Qassimi, Poligami, Pewarisan, Rasionalisme Salafi

مقدمة

شهد القرن العشرون اتجاهات مختلفة ومناهج متعددة في تفسير القرآن الكريم. فمنها ما تحبذ الإعجاز العلمي، ومنها ما تدعو إلى الاكتفاء بالمأثور، ومنها ما تروج اللغوية الأدبية، ومنها ما تنادي بالعقلانية أو الاجتماعية. ففي ضوء هذه التيارات المختلفة عاش المفسر السوري الشيخ جمال الدين القاسمي، وجاء بمنهج يحاول من خلاله الجمع بين هذه المناهج والاتجاهات المختلفة، يجتهد في استبانة حجة كل فريق من أصحاب المذاهب وتقريب أحدهما من الآخر[1].

يحاول هذا البحث دراسة تراث الشيخ جمال الدين في تفسيره المسمى بـ"محاسن التأويل"، مركزا على منهجه في تناول قضايا اجتماعية من خلال تفسيره لآيات تعدد الزوجات والميراث. يعرض البحث ترجمة للقاسمي، ودعوته إلى الاجتهاد ورفض التقليد، ورأيه في العلوم العصرية، ومنهجه في التفسير، ثم آراءه في تعدد الزوجات والميراث كنماذج للمنهج الاجتماعي في تفسيره.

---

[1] محمود مهدي الإستانبولي، **شيخ الشام جمال الدين القاسمي** (بيروت: المكتب الإسلامي، 1405هـ/1985م)، ص30-31.

ترجمة الشيخ جمال الدين القاسمي

القاسمي هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق. إمام الشام في عصره علما بالدين وتضلعا في فنون الأدب. ولد في دمشق عام 1283هـ/1866م، وتوفي فيها عام 1332هـ/ 1914م، وقبره في مقبرة الباب الصغير[2].

تلقى مبادئ العلوم الشرعية والعربية من والده الشيخ محمد سعيد بن الشيخ قاسم الذي ينتسب إليه القاسمي، وخال والده حسن جبينه المشهور بالدسوقي. وتتلمذ على شيوخ عصره أمثال سليم العطار وبكري العطار ومحمد الخاني. وكان يحضر مجالس عبد الرزاق البيطار، مجدد مذهب السلف في الشام، وقد استفاد من علمه وعقيدته الأثرية وهديه وأخلاقه ما لم يستفد من غيره[3]. قرأ القرآن على الشيخ الحافظ عبد الرحمن المصري، نزيل دمشق، ثم جوده على شيخ القراء بالشام: أحمد الحلواني، ونال إجازات عامة من الشيخ محمود الحمزاوي، والشيخ طاهر الآمدي والشيخ محمد الطنطاوي الأزهري ثم الدمشقي[4]. ويروى أن القاسمي جاء مصر مع الأستاذ البيطار والتقيا بمحمد عبده، ثم صارت المكاتبة بعد ذلك متصلة بينه وبينهما. وقد تأثر كثيرا بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في دعوته إلى الفكر الحر[5].

---

[2] حسن السماحي سويدان، تقديم **لكتاب جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب** لجمال الدين القاسمي، (بيروت: دار ابن كثير، 1996م)، ص7.

[3] الإستانبولي، **شيخ الشام جمال الدين القاسمي**، ص16.

[4] جمال الدين القاسمي، **دلائل التوحيد** (بيروت: دار النفائس، 1412هـ/1991م)، ص34.

[5] الإستانبولي، **شيخ الشام جمال الدين القاسمي**، ص16-17.

أما تلامذته فقد تخرج في حلقات دروسه كثير من العلماء ورجال السياسة والأدب، منهم عبد الرحمن الشهبندر وعبد الوهاب الإنجليزي وشطري العسلي ورشيد بقدونس وتوفيق البذرة وبهجة البيطار وجميل الشطي ولطفي الحفار وحامد التقي وجميل البيطار وسليم الجزائري وغيرهم. وكان مع طلابه كالصديق مع صديقه، يعطيهم الحرية في البحث[6]. وكان أيضا لا يكتفي بالتعليم المنهجي، بل يهتم أيضا بتربية طلابه متى أمكن. قال عنه بعض تلامذته: "أخذني مرة إلى وليمة، فشرعنا نأكل مما لذ وطاب، وبعد مدة قام فاضطررت إلى القيام معه دون أن أقنع منه، فذكرت له بعد خروجنا من دار الضيافة أن نفسي ما زالت في الطعام، وقد قمتم قبل أن أنتهي منه. فأجابني: إني كنت أراقبك، وقد شبعت من مدة، وأنا أنتظر ثم رأيتك قد شرعت في الإضرار في جسمك بكثرة الطعام، لذلك سارعت في القيام خوفا على بطنك!"[7].

وللعلامة القاسمي أكثر من اثنين وسبعين كتابا، المطبوع منها ما يأتي:
(1) دلائل التوحيد (2) ديوان خطب (3) الفتوى في الإسلام (4) إرشاد الخلق إلى العمل بالبرق (5) المسح على الجوربين (6) الإيناس في تصحيح أنكحة الناس (7) شرح لقطة العجلان (8) أربع رسائل في أصول الفقه (9) رسائل في أصول التفسير (10) مولد الرسول ﷺ (11) نقد النصائح الكافية (12) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (13) قواعد التحديث (14) مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن (15) شرف الأسباط (16) تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب (17) إصلاح المساجد من البدع والعوائد (18) جوامع الآداب (19) محاسن التأويل، وهو الذي ندرسه في هذا البحث.

---

[6] المرجع السابق، ص88.
[7] المرجع السابق، ص89.

دعوته إلى الاجتهاد ورفض التقليد

كان القاسمي يدعو إلى مذهب السلف والرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة للعودة بالإسلام إلى أصله الأول، ونفي ما دخل عليه من بدع وخرافات وأوهام كانت سببا في بعد المسلمين عن دينهم، مما أدى إلى تشويه الإسلام وضعف المسلمين واستيلاء الأعداء عليهم. وهذه الدعوة السلفية التي قام بها القاسمي لها معارضون كثيرون، وأنصار قليلون، وخاصة في بلاد الشام بعد توقف حركة الإصلاح العظيم الذي بدأها شيخ الإسلام ابن تيمية، غير أن جميع هذه الصعاب لم تثنه عن عزمه[8].

وقد كان القاسمي يدعو العلماء إلى عدم قبول آراء الفقهاء المتقدمين عن تقليد، بل بعد إقامة الدليل عليها[9]، ويحمل على عدم التعصب المذهبي[10]. ومما يحكى أن أستاذه الشيخ بكري العطار قرأ مرة حديثا صحيحا ثم قال بعد تلاوته: إن هذا الحديث مشكل لأنه يخالف مذهب الشافعي الذي نحن عليه. فأجابه قائلا: "يا أستاذ، هل الإشكال في الحديث الصحيح الصريح في الحكم أم الإشكال في المذهب الذي خالفه"؟ فتنبه عند ذلك الشيخ العطار وأدرك خطأه[11].

ولأجل حبه الشديد للفكر الحر والاجتهاد كان لا يكفر فرق الجهمية والمعتزلة وغيرهما من الفرق الإسلامية كما هي عادة بعض السلفيين. بل قرر أن

---

[8] المرجع السابق ، ص27.

[9] المرجع السابق، ص27.

[10] جمال الدين القاسمي، **الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس** (عمان: دار عمار، 1409هـ/1988م)، ص16-17؛ والإستانبولي، **شيخ الشام جمال الدين القاسمي**، ص84.

[11] الإستانبولي، **شيخ الشام جمال الدين القاسمي**، ص28.

لهم – الجهمية والمعتزلة – ما لجميع المجتهدين، وكانوا في اجتهادهم مأجورين وإن كانوا في القرب من الحق متفاوتين. فالاجتهاد في نظره يشمل مسائل الفقه ومسائل الكلام على حد سواء؛ إذ ما يبعث على بذل الجهد في الفروع هو نظير ما يبعث عليه في الأصول أو أعظم[12]. والذي يدعو للعجب في هذا الصدد أن نرى القاسمي – وهو سلفي – ينكر على الغزالي – وهو المؤسس الثاني للمدرسة الأشعرية الكلامية – في حمله الشديد على من خاض في مسائل الأصول[13]. فحينما يحذر الغزالي من علم الكلام[14]، يحث القاسمي عليه ويدافع عنه[15]، وهو في ذلك مخالف لرأي ابن تيمية في علم الكلام والمتكلمين[16].

وكان محقق كتابه دلائل التوحيد، خالد عبد الرحمن العك، ينكر على القاسمي تأييده لعلم الكلام ويرد على أفكاره في الحاشية كلما سنحت له الفرصة. وقد أدمج موضوعات ردوده هذه في الفهرس مع موضوعات الكتاب نفسه، حتى لا يكاد يفرق كل واحد بين موضوعات الكتاب وموضوعات تعليقاته هو، حرصا منه ألا تفوت القارئ هذه الردود، إذ ليست بأقل أهمية، في اعتباره، من موضوعات الكتاب نفسه، إن لم تكن هي أهم. ولذا نراه حينما وصل إلى رأي القاسمي في "التقليد" في المقدمة التي قدمها للكتاب يعقب بقوله: "هذا هو الجانب الذي كنا نتمنى أن يكون معدوما في كتاب الشيخ الجليل رحمه الله تعالى، ونلمس هذا في أخذه بأقوال الفلاسفة والمتكلمين القائمة على

---

[12] جمال الدين القاسمي، **تاريخ الجهمية والمعتزلة**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1985م)، ص77-83.

[13] المرجع السابق، ص78-80.

[14] انظر كتابه، **إلجام العوام عن علم الكلام**.

[15] جمال الدين القاسمي، **دلائل التوحيد**، ص183-188؛ 288-296.

[16] انظر مثلا كتابه **نقض المنطق**.

أساس الظن في قضايا اليقين – قضايا العقيدة –، وذلك في تقريره الاحتجاج لمذهب أهل الكلام على إثبات عقيدة التوحيد ...، ولهذا فقد وردت تعليقاتنا واستدراكاتنا كاشفة مبينة كل شيء على حقيقته، أمانة للحق وحفظا للعلم وصونا للعقيدة"[17].

وبما أن القاسمي يدعو إلى الاجتهاد فلابد أن يهتم بقيمة العقل. ولهذا يشير إلى أن الإسلام أشاد بقيمة العقل، وأن في القرآن آيات كثيرة تحرض على استعمال العقل، بل أكد القاسمي أن منهج القرآن نفسه عقلي في استدلاله، وفي تقريره[18]. وفي القرآن آيات كثيرة تدعو إلى استعمال الفكر والعقل. ويرى القاسمي أن القرآن حينما يدعو إلى النظر والتفكر لم يخش عواقب أن يأتي العلم بنتائج تناقض حقائق الدين ومسلماته؛ لأن فكرة الإسلام قائمة على أن الحقيقة الدينية لا يمكن أن تناقض الحقيقة العقلية أو العلمية، فالحق لا ينقض الحق، واليقين لا يعارض اليقين، إنما يعارض اليقين الظن. ومن هنا لا يمكن بحال مناقضة صحيح المنقول لصريح المعقول، وإذا بدا لنا في بعض الأحيان تناقض ظاهري، فلابد أن يكون المنقول غير صحيح أو المعقول غير صريح[19].

وكما يرفع الإسلام قيمة العقل، فإنه كذلك يشيد بقيمة إدراكاته؛ ومن ثم فالتشكيك في قيمة العقل أو قيمة الإدراك الحسي وموضوعية هذا الإدراك هو ذريعة للتشكيك فيما قام على أساسها من استدلال يمس قضايا العقيدة في الصميم. ويشير القاسمي إلى أن القرآن ذكر للعقل ثلاث وظائف كبرى: (1) الكشف عن السنن التي تسير بها المخلوقات من جماد ونبات

---

[17] انظر مقدمة خالد عبد الرحمن العك **لكتاب دلائل التوحيد** للقاسمي، ص15.

[18] القاسمي، **دلائل التوحيد**، ص 144-150.

[19] المرجع السابق، ص113، 147-149؛ **ومحاسن التأويل**، ج5، ص168-173.

وحيوان وإنسان، قصد تسخيرها والانتفاع بها. (2) فهم معاني النصوص الشرعية، إدراك الأسرار والحكم والمقاصد التي تضمنتها أحكامها وإعمال الاجتهاد في هذه النصوص، وإعمال العقل في الترجيح عند ورود الأدلة المحتملة. (3) الاعتبار من الحكم والأسرار الكامنة في الكون والشرع، وإدراك الغايات البعيدة لتلك الحكم والأسرار، ثم الربط بين ذلك كله وبين وجود الإنسان على وجه الأرض[20]. يرى القاسمي أن العقل لا يستكمل وظائفه حتى يجمع بين هذه الوظائف الثلاث: معرفة أسرار الكون والانتفاع بها، معرفة وأحكام الشرع والعمل بها، ثم الاعتبار بهما[21].

وكان القاسمي يعيب الذين يعطلون العقل من وظيفته الفكرية. ومن طرائف ما روي عنه أنه قال: "إن الحكومة لو أرادت أن تضع في مستشفى الأمراض العقلية كل من تكون أفعاله شاذة عن المعقول، لما كفتها المستشفيات الكثيرة، فهي تفعل ما في قدرتها، لذلك تكتفي بالمجنون الخطر وتترك سواه"[22].

وأجمل ما اختتم به كلامه في هذا المقام ما اقتبسه من الراغب الأصفهاني حين قال: "اعلم أن العقل لا يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأساس، والشرع كالبناء، ولن يغني الأساس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس، وأيضا فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر"[23].

---

[20] القاسمي، **دلائل التوحيد**، ص142.

[21] المرجع السابق، ، ص142.

[22] الإستانبولي، **شيخ الشام جمال الدين القاسمي**، ص82.

[23] جمال القاسمي، **دلائل التوحيد**، ص142.

رأيه في العلوم العصرية

يؤكد القاسمي أن الإسلام يعلي مكانة العلم، ويحث على طلبه أيا كان. ثم يوضح مجالات العلم أنها تشمل مجال "ما وراء الطبيعة" مما جاء به الوحي، فكشف عن حقائق الوجود الكبرى؛ كما يشمل العلم مجال "الإنسان"، وما يتعلق به من دراسات نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غير ذلك؛ ويشمل العلم أيضا مجال "الماديات" المبثوثة في الكون، علوية وسفلية من العلوم الطبيعية والكيمياء والأحياء والفلك والطب والهندسة وغيرها مما يقوم على الملاحظة والتجربة.

ويشير القاسمي بعد بيان مجالات العلم إلى أن الإسلام لا يقف عقبة في سبيل هذه العلوم، والعلم العصري ليس مقابلا للإيمان فضلا عن أن يكون معاديا له، كما كان الأمر في المسيحية[24].

ثم يحاول القاسمي أن يستنبط من القرآن المعالم الأساسية التي تقوم عليها هذه العقلية العلمية، وأوجزها في خمس نقاط:

1- ألا تقبل دعوى بغير دليل مهما يكن قائلها، والدليل هو: البرهان النظري في العقليات ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:64]، والمشاهدة أو التجربة في الحسيات ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف:19]، وصحة الرواية وتوثيقها في النقليات ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف:4].

2- رفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين الجازم، والعلم الواثق، ولذا رد القرآن مزاعم المشركين في آلهتهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن

[24] المرجع السابق، ص111-112.

يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم:28]. ورد مزاعم اليهود والنصارى في صلب المسيح فقال: ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء:157].

3- رفض العواطف والأهواء والاعتبارات الشخصية حيث يطلب الحياد والموضوعية، وحيث تكون التعامل مع طبائع الأشياء وقوانين الوجود أيا كانت نتائجها. يقول القرآن منكرا على المشركين: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم:23]، وقال في خطاب داود: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:26].

4- الخروج على الجمود والتقليد والتبعية الفكرية للآخرين، سواء أكانوا من الآباء والأجداد، أم من السادة الكبراء، أم من العامة والجماهير، وفي القرآن إنكار شديد على الذين يقولون: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ [البقرة:170]، وهو رد عليهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:170].

5- الاهتمام بالنظر والتفكير والتأمل في الكون: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:18]، وفي الإنسان نفسه: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21]، وفي سير التاريخ البشري ومصاير الأمم وسنن الله في الاجتماع الإنساني ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾. [آل عمران:137][25].

[25] المرجع السابق، ص121-123.

ثم يعترف القاسمي أن أوربا ما غلبت على المسلمين واستولت عليهم وجعلتهم عالة عليها إلا بسبب إتقانها للعلوم الكونية وإهمال المسلمين لها[26]. ويشير إلى أن الاختلاف في الدين لا يمنع من الاستفادة من الغير؛ إذ اختلاف الدين لم يمنع النبي ﷺ أن يأخذ من المشركين خير ما عندهم حين جعل فدا أسرى الحرب يوم بدر أن يعلموا أبناء المسلمين الكتابة. وقياسا على هذا يحض القاسمي على تعلم لغات الآخرين عند الحاجة إليها، وخصوصا إذا كان عندهم علم يؤخذ أو حكمة تقتبس؛ إذ لا سبيل إلى الانتفاع بما عند الغير إذا جهلت لغته[27].

ومع ذلك يرى أن العلوم الحديثة وحدها لا تجدي، ولكن لابد أن تقترن بالعلم الديني الذي ينمي الإيمان، ويحيي الضمائر، ويغرس الفضائل، ويقي الإنسان شح نفسه وطغيان غرائزه على عقله وهواه على ضميره؛ وهذا هو الذي يعصم العلم المادي من الانحراف، ويحول دون استخدامه في التدمير والعدوان. وعلى هذا نشأ العلم في الإسلام في أحضان الدين، ونشأت المدارس في صحون المساجد، وبدأت الجامعات الإسلامية تحت سقوف الجوامع، بل سمي كل منها جامعا: جامع الأزهر، وجامع القرويين، وجامع الزيتون وهكذا ... وهذه الجوامع تدرس علوم الدين وعلوم الدنيا معا.

وأحسن ما قاله القاسمي في هذا المجال هو قوله: "ألا إن العلم الحق هو الذي يهدي إلى الإيمان، والإيمان الحق الذي يفسح مجالا للعلم. فهما إذن شريكان متفاهمان، بل أخوان متعاونان"[28].

---

[26] الإستانبولي، المرجع السابق، ص81.

[27] القاسمي، **دلائل التوحيد**، ص125.

[28] المرجع السابق، ص115.

منهجه في التفسير

كان القاسمي يقدم دروسه في التفسير في داره التي كانت مدرسة يأتيها الطلاب ليلا ونهارا. حاول المؤلف أن يكون تفسيره سلفيا بحتا، لا يتعصب لرأي ولا يقلد أحدا، وإنما يأخذ من كل تفسير ما يستريح له صدره على طريقة السلف، بعيدا عن التعطيل والتشبيه. وكان رحمه الله مولعا بالمصلح الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية وبمؤلفاته وفتاواه، ويشير إلى فضل ابن تيمية، ويستشهد بآرائه في التفسير وغيره، ولكن لم يتفق معه في بعض المجالات، مثل رأيه في علم الكلام، ويلومه لحدته أحيانا وخاصة مع أبي حيان الأندلسي صاحب تفسير البحر المحيط، الذي يحبه القاسمي ويدافع عنه[29].

وقد قدم القاسمي في تفسيره إحدى عشرة قاعدة سماها "قواعد التفسير" لابد من مراعاتها لكل من يشرع في علم التفسير، وهي: (1) قاعدة في أمهات مآخذه (التفسير) (2) قاعدة في معرفة صحيح التفسير وأصح التفسير عند الاختلاف (3) قاعدة في أن غالب ما صح عند السلف من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع (4) قاعدة في معرفة سبب النُّزول (5) قاعدة في الناسخ والمنسوخ (6) قاعدة في القراءة الشاذة والمدرجة (7) قاعدة في قصص الأنبياء والاستشهاد بالإسرائيليات (8) قاعدة أن كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء (9) قاعدة في أن الشريعة أمية، وأنه لابد في فهمها من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم (10) قاعدة الترغيب والترهيب في التنْزيل الكريم (11)

---

[29] الإستانبولي، **شيخ الشام جمال الدين القاسمي**، ص50.

قاعدة في أنه: هل في القرآن مجاز أم لا؟[30]. ويمكن أن نجمع سمات منهجه على النحو التالي:

(1) دعم تفسيره بأحاديث الرسول ﷺ التي أخرجها البخاري ومسلم وأحمد والترمذي، وفهمه على النهج الذي كان عليه السلف الصالح.
(2) الاستفادة بأقوال المفسرين القدامى مثل الطبري والزمخشري والرازي.
(3) العناية بالقراءات المتواترة.
(4) إيراد أقوال النحاة.
(5) الرجوع إلى القاموس المحيط للتعرف على مدلولات الكلمات.
(6) نصرة مذهب أهل السنة والجماعة والرد على أقوال المعتزلة.
(7) النقل عن الأناجيل وذكر بطلان ما زعمه اليهود في توراتهم وتلمودهم وما رواه النصارى في الإنجيل.

نماذج من التفسير الاجتماعي للقرآن

وبعد أن أوضحنا آراء القاسمي في الاجتهاد والعلوم العصرية حري بنا أن نوضح آراءه في بعض الآيات القرآنية التي لها مدلولات بالاجتماعيات. نختار بعض قضايا المرأة كموضوع للدراسة. نعرض أولا الآيات ثم نعقبها بتعليق القاسمي.

- **تعدد الزوجات وشروطه**

يقول الله تعالى: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾

[30] القاسمي، **محاسن التأويل**، ج1.

[النساء:3]. ويقول أيضا: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:129].

حاول القاسمي أن يبين كيف توافق هذه الآيات على إصلاح النسل الذي نادى به علماء الاجتماع في العصر الحديث. وقد أورد قول علماء الاجتماع من المسلمين في إصلاح النسل ثم علق عليه. الحاصل أن بعض الاجتماعيين يرون أن إصلاح المجتمع يتوقف على إصلاح النسل، وإصلاح النسل يبدأ باختيار الأزواج النابغين منهم والنابغات، ويزداد بتعدد الأزواج النابغات. ومؤدى القول أن الإنسان يجب عليه أن يحسن اختيار قرينته. فالرجل النابغ يتزوج بالمرأة النابغة فينشأ مجتمع مؤلف من النابغين. وتكوين المجتمع على هذا الشكل يأتي بتعدد الزوجات للنابغين من الرجال ليكثر نسلهم، ومنع أصحاب العاهات والأمراض المزمنة وأولي الجرائم الكبيرة من الزواج، لينقطع نسلهم الذي يجيء غالبا على شاكلتهم[31].

وبنص الآية يجوز لكل واحد من المسلمين أن يتزوج بأكثر من واحدة من النساء إلى أربع إذا آنس في نفسه القدرة على العدل بينهن، وإلا وجب عليه الاقتصار على واحدة لئلا يجور عليهن. ويرى القاسمي أن الرجل النابغة له أن يتزوج بأكثر من واحدة بعد رضائها أو رضائهن، وأن العاقلة من النساء تفضِّل أن تكون زوجة لنابغة من الرجال – وإن كان ذا زوجات أخر –، على أن تكون زوجة لرجل أحمق – وإن اقتصر عليها –؛ لأنها تعلم أن أولادها من الأول يكونون نابغين أكثر من أولادها من الثاني[32]. وحتى تتم الفائدة لازم أن يتزوج النابغون بالنابغات ليكون أولادهم مثلهم نابغين أو أنبغ منهم بحكم سنة

---

[31] المرجع السابق، ج5، ص1119.

[32] المرجع السابق، ج5، ص1120.

الوراثة، وإلا فالزوجة المتوسطة أو المنحطة لا يكون أولادها في الغالب إلا مثلها من التوسط أو الانحطاط حتى ولو تزوجت الرجل النابغة[33]. والقدرة على العدل بين أربع من النساء كما أكد القاسمي متوقف على عقل كبير وسياسة في الإدارة وحكمة بالغة من المعاملة، "وهذا لا يأتي إلا لمن كان نابغا من الرجال ذا مكانة من العقل ترفعه على أقرانه. والرجل النابغة إذا تزوج بأكثر من واحدة كثر نسله فكثر النوابغ، والشعب الذي يكثر نوابغه أقدر على الغلبة في تنازع البقاء من سائر الشعوب"[34].

وعلى هذا لا يكون قوله: ﴿مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:3] خيارًا مطلقًا على رأي القاسمي، وإنما هو متوقف على مراتب نبوغ الرجل. فالذي قل نبوغه لا يتجاوز الاثنتين، والذي نبوغه متوسط يكتفي بثلاث، أما الذي نبوغه أعلى من الأولين فيحل له الاقتران بأربع[35]. وأما الخائفون من العدل، وهم غير النابغين، فيجب أن لا يتجاوزوا الاقتران بواحدة، وهم المخاطبون بقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:129]؛ لأنهم في درجة العقل دون درجة النابغين. فحرم على هؤلاء التزوج بأكثر من واحدة لئلا يظلم الأزواج زوجاتهن، "ولئلا يكثر نسل غير النابغين، وهو الأهم، فتبقى الأمة في مكانها من الانحطاط"[36].

---

[33] المرجع السابق، ج5، ص1121.

[34] المرجع السابق، ج5، ص1120.

[35] ويرى القاسمي أن الرسول ﷺ تزوج بأكثر من أربع لأن نبوغه أعلى حيث قال: "وهناك إنسان نبوغه أكبر من كل نبوغ. وهو محمد ﷺ. الذي اختاره الله لوفور حكمته رسولا منه إلى البشر. قد أحل له أن يقترن بأكثر من أربع لقدرته على العدل بينهن". المرجع السابق، ج5، ص1121. يبدو أن القاسمي قد غالى في هذا المعيار النبوغي. هنا يتساءل القارئ عن نبي الله سليمان الذي تزوج بعشرات من الأزواج. فهل نبوغه أكبر بكثير من نبوغ محمد أم معيار تعدد الزوجات وقت سليمان يختلف من وقت محمد؟!

[36] القاسمي، **محاسن التأويل**، ص1120.

ثم يعلق جمال الدين القاسمي على هذا القول بقوله: "وأظنك، بعد قراءة ما أوردت، تعترف -إن كنت من المنصفين- أن الإسلام جاء، قبل أكثر من ألف وثلاثمائة عام، بسنةٍ للزواج، عليها وحدها يتوقف إصلاح نسل البشر، الذي أخذ في هذا القرن أفراد من فلاسفة الغرب يحضون عليه. تلك السنة هي تعدد الزوجات بعد أن كان الرأي العام في الغرب يعيبه عليها. هذا هو الإسلام يقرر أكبر قاعدة للترقي، وهو إباحة تعدد الزوجات، اللاتي يطبن لوفور جمالهن وعقلهن، لأفراد نابغين من المسلمين، لا يخافون لوفور عقلهم أن لا يعدلوا بينهن، ولكن المسلمين لم يأتمروا بأمر الله، فأباحوا هذا التعدد لكل أحد من المسلمين، للخائفين أن لا يعدلوا، ولغير الخائفين، ففسد النسل. والذي أعان على فساده هو كون القدرة عليه أصبحت، بحكم الجهل، منحصرة في المال الذي يجمعه الغاصب والسارق والكاسب، فكثر نسل الظالمين وقل نسل العادلين من أهل العقل الراجح"[37].

ويحذر الفقير في مكان آخر من الجمع بين زوجات وهو لا يستطيع الإنفاق عليهن؛ إذ لا يزال معهن في نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية، وهذا يؤدي إلى أن يتغلغل الفساد فيهن وفي أولادهن، وضرر ذلك بالدين والأمة غير خاف على أحد[38].

هكذا يوافق القاسمي على رأي علماء الاجتماع في تفسير هذه الآية، ولكنه يرى شيئا آخر حينما يفسر قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:129]، حيث لم يقيد الخطاب هنا بمن هم دون درجة النابغين كما يراه الاجتماعيون، بل يعتبره عاما لكل من تزوج بأكثر من

---

[37] المرجع السابق، ج5، ص1121-1122.

[38] جمال الدين القاسمي، **جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب**، ص55.

واحدة. وذلك أن المساواة لا تمكن من جميع الوجوه، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع؛ لأن الميل يقع بلا اختيار في القلب، استشهادا بقول عائشة، رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ»[39].

- **الميراث**

يقول تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:11].

قد كثر القيل والقال في هذا العصر في مسألة ميراث المرأة في الإسلام، ويقول أعداء الإسلام بإن الإسلام لم ينصف المرأة في الميراث. وردًّا على هذه التهمة كثرت مؤلفات المسلمين التي تحمل غالبا عناوين مثل "مساواة المرأة في الإسلام" و"حقوق المرأة" وغير ذلك. وكلما تثار هذه القضايا تعطى أهمية بالغة لقضية الميراث: لماذا تأخذ المرأة نصف ما يأخذه الرجل؟

وقد بين علماء الإسلام وجه الحكمة في ذلك، منها أن الرجل في أشد الحاجة إلى النفقة على عياله أكثر مما تحتاجه المرأة، فكان عليه النفقة على

---

[39] أبو داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، **السنن**، (بيروت: دار الكتاب العربي)، ج2، ص208؛ والقاسمي، **محاسن التأويل**، ج5، ص1598.

عياله، وليس ذلك على المرأة، إضافة إلى معاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق التي يقوم بها الرجل في العادة، ولا تنسجم مع طبيعة المرأة[40].

والقاسمي يوافق الجمهور كل الموافقة على هذا التوجيه، أما الذي يثير الدهشة والتساؤل هو إضافة القاسمي على ذلك أن المرأة لو كمل نصيبها مع أنها قليلة العقل كثيرة الشهوة لأتلفته في الشهوات إسرافا[41]. وهذا يعني أن قلة عقل المرأة تجعلها تأخذ نصف نصيب الرجل.

وهذا التعليل في رأيي ليس بشيء، ولا حاجة للتعليل بمثله؛ فإن نصيب المرأة في تركة قد تضعف نصيب رجل في تركة أخرى. فقد تأخذ هي ألفا مثلا في تركة – وهذا مع ذلك نصف ما للرجل – ويأخذ الرجل في تركة أخرى مائة – وهو ضعف ما للمرأة. فهل قلة عقلها تمنعها من أن ترث الألف، وكمال عقل الرجل يمنحه ما هو أكثر من مائة الذي هو نصيبه في تركته؟!. وأما دعمه رأيه هذا بكثرة شهوة المرأة فهذا أيضًا لا يؤيده واقع المرأة كما يعرف ذلك الرجال.

ويري القاسمي أيضا، تابعا لقول صاحب الإنصاف، أن المذكور في هذه الآية ميراث الذكر مطلقا، مجتمعا مع الإناث ومفردا[42]. والناظر في الآية يرى أن العكس أصح، فالمذكور هو ميراث الإناث مجتمعة مع الذكور ومنفردة. ففي حال اجتماعها مع الذكور ورد قوله: ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾؛ وفي حال انفرادها جاء قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن

---

[40] القاسمي، **محاسن التأويل**، ج5، ص1139.

[41] المرجع السابق ونفس الصفحة.

[42] المرجع السابق، ج5، ص1138.

كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾، ولم يرد نص صريح في حكم الرجل حال انفراده، وإنما استفيد أن له كل التركة من مفهوم قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ و﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ باجتماعهما.

أما قوله في ذيل الآية: ﴿آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ فالعبارة من باب التغليب، والمعنى يشمل كل ما ذكر من الأصول والفروع ذكرا وأنثى، فالآباء يشمل الأب والأم، والأبناء يشمل الابن والابنة. واستعمال الآباء للوالدين والأبناء للولدين كثير في القرآن، وذلك في نحو قوله ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ [التوبة: 24] ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:22].

ثم يقول المولى عز وجل في الآية التالية: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:12].

وبعد تحليل القاسمي الآية أشار إلى نقطة مهمة في فضل الرجال على النساء، ورأيه فيه مبني على ما اقتبسه من الرازي، فرأى أن في الآية ما يدل على فضل الرجال على النساء من ثلاثة أوجه. الأول: أن الله ذكر الرجال على سبيل المخاطبة، وحيث ذكر النساء ذكرهن على سبيل المغايبة. الثاني: أن الله خاطب الرجال سبع مرات، وذكر النساء على سبيل الغيبة أقل من ذلك. الثالث: فضل الرجال على النساء في النصيب.

وهذه الأوجه الثلاثة -كما ذكرها- في الحقيقة، لا تدل على فضل الرجال على النساء. فبالنسبة للوجه الأول فالذكر على سبيل المغايبة لا يقل

أهمية من الذكر على سبيل المخاطبة؛ بل الذكر على سبيل المغابية في بعض المقام أفضل من المخاطبة. فمثلا حين ذكر الله أسماء بعض النبيين ذكرهم على سبيل المخاطبة، نحو قوله: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46]، ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[هود:76]، ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص:31]، ﴿ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ [المائدة:110]. أما حينما ذكر لفظ "محمد" في الأماكن الأربعة التي ورد فيها لفظ "محمد" في القرآن ذكره على سبيل المغايبة ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:144]، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، [الأحزاب:40] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:2]، ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح:29]. فهل بعد هذا يوافق الشيخ القاسمي أن الرسل الذين ذكروا على سبيل المخاطبة أفضل من الرسول الذي ذكر على سبيل المغايبة؟

وبالنسبة للوجه الثاني فقد ورد في تلك الفقرة من الآية خطاب للرجال ثماني مرات – وليس سبعا كما ذكر – وورد ذكر النساء سبع مرات – الضمائر المتصلة معدودة – فهل الواحدة التي بينهما تعني فضل الرجال على النساء؟

والرجل حين يأخذ ضعف ما تأخذه المرأة إنما يأخذ حقه ونصيبه على حسب العدل الإلهي، لا على حسب المساواة[43] البشرية. فإذا كان أخذ الرجل

---

[43] لم تأت كلمة "المساواة" ولو مرة في القرآن وإنما وردت كلمة "العدل" الذي هو أليق، وربما حصل ذلك تجنبا لما قد يؤدي إليه "المساواة المطلق" من الجور، ومثل ذلك لا يخطر على كلمة "العدل المطلق". فمثلا إذا كان للرجل ولدان، أحدهما يحتاج إلى ألف دولار لرسوم دراسته والآخر يكفيه خمسمائة

ما هو أقل من هذا النصيب المفروض له يعتبر جورا كان أخذه نصيبه هذا حقا له وليس فضلا، وإنما الفضل يأتي فيما لو أخذ ما هو أكثر من حقه.

يلاحظ بعد تقديم النموذجين السابقين أن القاسمي لم يهتم بالناحية الاجتماعية في تفسيره، كما فعله معاصروه أمثال الشيخ محمد عبده، مع أن أوضاع المسلمين في الشام ليس بأحسن حالا منه في الممالك الإسلامية الأخرى. فكثير من الآيات الاجتماعية التي يتوقع أن يعلق عليها القاسمي لا يقف فيها القاسمي، وإنما يمر عليها مرورًا سريعًا، حتى النموذجين السابقين – تعدد الزوجات والميراث – فإن معظم ما قال فيهما مقتبس من غيره.

وقد يلتمس له العذر بأنه حاول أن يكون تفسيره سلفيا خالصا خاليا من التفريقات الاجتماعية والعلمية وغيرهما، وإلا فقد ألف في الاجتماعيات بعض الكتب مثل كتابه "جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب"، و"الإيناس في تصحيح أنكحة الناس، ويعتبر القاسمي كتابه عن "الفتوى في الإسلام" بحثا في شؤون الاجتماع[44]، حيث يقول في مقدمة هذا الكتاب: إنه لا يعرف قدر هذا الكتاب إلا من هو "نقابة في التاريخ، دراكة في علوم الاجتماع، بصير بالماضي والحاضر، خبير بالحديث والغابر"[45].

ولكنه، بالمقارنة، حينما يتعرض للآيات التي تتعلق بالشؤون الحربية يطيل النفس ويسهب في القول داعيا حكام المسلمين إلى العمل بتلك الآية.

لرسوم دراسته أيضا. فمقتضى المساواة أن يأخذ كل منهما مثل نصيب الآخر، مع أن القسمة يعتبر جورا على الذي يحتاج إلى الألف. ومقتضى العدل أن يأخذ كل منهما قدر ما يحتاج إليه. فمثل هذا ينطبق على ميراث الرجل والمرأة. والله أعلم.

[44] جمال الدين القاسمي، **الفتوى في الإسلام** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1986م)، ص25.

[45] المرجع السابق، ص27.

وربما رأى في ذلك أن الفساد الاجتماعي تسبب عن الضعف السياسي والحربي. فإصلاح المؤسسات الاجتماعية لا يتم إلا بالقوة من جهة أولي الأمر. ولذا نراه حينما يفسر قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:60] يقول: "دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية، اتقاء بأس العدو وهجومه. ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية، أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزا عظيما، أبي الضيم، قوي القنا، جليل الجاه، وفير السنا ... وعاش بنوه أحقابا متتالية وهم سادة الأمم وقادة الشعوب ... أم اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف فأهملوا فرضا من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض. ولذا تعاني اليوم ما تعاني. وكيف لا يطمع العدو في الممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة وذخائر الحرب، بل كلها يشترى من بلاد العدو. أما آن لها أن تنتبه من غفلتها وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقى تنقص العدو بلادها من أطرافها درسا يجب أن تتدبره وتتلافى ما فرطت به قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورجله، فيقضي – والعياذ بالله – على الإسلام وممالك المسلمين لاستعمار الأمصار واستعباد الأحرار ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار. وبالله الهداية"[46].

الخاتمة

تأثر القاسمي بأوضاع مجتمعه، حيث حاول جمع كلمة المسلمين وتقريب آرائهم في قضايا مختلفة، واستفاد بمقولة الاجتماعيين ومنهجهم في

---

[46] القاسمي، **محاسن التأويل**، ج8، ص85-86.

إصلاح المجتمع، وإن كان مما نقله منهم ووافقهم عليه نوع من المغالاة. أما منهجه في التفسير فقد حاول أن يكون منهجا سلفيا خالصا، بحيث يتجنب الاختلافات المذهبية العقدية والاقتراحات الاجتماعية. وما يقوله في الاجتماعيات قليل جدا. وربما رأى في ذلك أن يكون التفسير صافيا بحيث لا نقحمه بالاجتماعيات؛ بل يفرد الاجتماعيات في كتب مستقلة، وتكون الآراء في هذه الكتب مبنية على تعاليم القرآن الكريم. وهذا هو ما فعله في كتبه الأخرى في الاجتماعيات. ويلاحظ أن جمال الدين القاسمي كان مجتهدا مبدعا يمكن وصف منهجه بـــ"سلفية عقلانية"، التقى في شخصيته كلا المنهجين: الكلامية العقلية والسلفية يظهر من خلالهما عبقريته ورفضه للتقليد والاتباع من غير دليل مقنع.